كلمة الأب رينيه شاموسي

رَئيس جامِعَة القِدِّيس يُوسُف، بَيروت

الجامِعَة في زمن العَولمة

لِمناسبَة الاحتفال بِعيد الجامِعَة السَنَويّ
في ١٨ آذار ٢٠١١

في حَرَم العُلوم والتِكنولوجيا، مار رُوكز

حَضَرات رؤساء الجامعات في لبنان،
حَضَرات النقباء ورؤساء جمعيّات المِهَن الحرّة وهيئاتها،
حَضَرات السيّدات والسادَة الأساتذة،
وممثّلي الهيئة الإداريّة، والطَلَبَة، ورابطات القدامى،
أيّها الأصدقاء،

لا يملّ المرء أبداً من التفكير باستمرار في هذه المؤسّسة العجيبة التي هي الجامعة. ومردّ ذلك أوّلاً إلى أنّه يلتقي ويتجمّع فيها نساءٌ ورجالٌ يتحلّون مبدئيّاً بكفاءاتٍ مميّزة، ويحرصون عادةً على إشراك الآخرين في معارفهم. ومردّ ذلك ثانياً إلى أنّه يلتقي فيها شبّانٌ وشابّاتٌ هم عادةً طلاّب معرفة وحريصون كلّهم على إعداد مستقبلٍ لأنفسهم يخرج عن المألوف. ومردّ ذلك ثالثاً إلى أنّه في هذا المكان بالذات يلتقي جميع مَن قد يرغبون في تغيير أوضاع مجتمعٍ معيّن. وباختصار، تبقى الجامعة هذا المقام الرفيع للآمال كلّها، سواءٌ تلك التي يعقدها عليها شبّانٌ متعطّشون إلى المعرفة وإلى الكفايات، أم تلك التي تعقدها عليها الأُمم الحريصة على إنماء ذاتها وتطويرها وعلى أن تصبح مؤهّلة لتقدّم أفضل ما عندها.

ولكنّ تاريخ الجامعات في عالمنا ليس تاريخ هذا أو ذاك من الكيانات التي لا تتغيّر أبداً، فتاريخ الجامعات يدعونا إلى اكتشاف ما يطرأ باستمرار من تغيّرات على العلاقات بين الناس والمعرفة، وبين المعرفة والمجتمعات، وبين المعارف وإنماء الشعوب. فلقد شهد هذا التاريخ عهد المعلّمين وتلامذتهم، ثمّ عهد قادة الرأي وتابعيهم المخلصين، ثمّ عهد الأمواج المتراصّة من الطلاّب الذين لم يكونوا كلّهم يسعون وراء تحصيل المعرفة لذاتها، بل بالأحرى وراء الشهادة، هذا المفتاح السحريّ الذي لا غنىً عنه لفتح أبواب مِهَن الغد ووظائفه. فتحوّلت الجامعة أحياناً إلى معملٍ لتصنيع الشهادات. ولم يكن ذلك في الماضي، ولا هو اليوم أيضاً مدعاة رضىً وابتهاج.

وعند هذا المنعطف بالذات، خطت الجامعات خطوة جديدة. فلقد تعيّن على الجامعة، في هذا البلد أو ذاك، أن تنهج طريقاً جديداً: وقد تحقّق ذلك في مجال البحث العلميّ. وكان لا بدّ ألاّ تبقى الدروس تكراراً عقيماً، بل أن تغدو نتيجة أبحاثٍ لا تنفكّ تتجدّد باستمرار. وكان لا بدّ أن يكتشف أصحابُ القرار، في المجال السياسيّ كما في المجالَين الاقتصاديّ والعلميّ، كلّ ما يمكن الباحثين في الاختصاصات المختلفة أن يقدّموه. وكان لا بدّ أن يوضع العلم في الجامعات في خدمة العلم نفسه كما في خدمة المجتمعات المتعطّشة إلى تنمية ذاتها تنميةً مستدامة.

وفي هذا السياق بالذات، برزت بصورةٍ طبيعيّة مهمّةُ الجامعة الثالثة، التي تقتضي منها أن تكون في خدمة الجماعة. فبعد أن بدت الجامعة في مرحلةٍ من المراحل وكأنّها اختارت أن تكون جزيرة منعزلة في قلب العالم، ها هي تصبح جهازاً أساسيّاً في الآلة المجتمعيّة. فكان لا بدّ للجامعة أن تنشط لا لتغذّي المنشآت أو لتنشّط الشركات المتعدّدة الجنسيّات باسم المبدأ الداعي إلى « التشجيع المجزي على الاستهلاك» فحسب، بل لتسمح لنظامٍ اجتماعيّ بكامله متعطّشٍ إلى الابتكار والتجديد أن يعمل. وكان لا بدّ أخيراً

للجامعة أن تنشط ليتمّ الاهتمام بالشعوب بمكوّناتها كافّة، من الأشدّ فقراً بينها إلى الأكثر غِنىً.

كانت الجامعة مخصّصةً لتنشئة العقول، ثمّ غدت بوتقة كلّ بحثٍ علميّ، وها هي تنفتح اليوم على الالتزامات الممكنة كلّها في قلب عالمنا. ويبدو من هذا المنظور مفيداً استعراض المقاربات المختلفة لهذا البعد كما تقوم بها جامعاتٌ تنتمي إلى بلدان مختلفة. فيتحدّث البعض هنا باقتضاب عن «خدمة المدينة»، في حين تتمّ الإشارة في قارّةٍ أخرى إلى «الالتزام الاجتماعيّ» المطلوب. ويتمّ التوسّع في مكانٍ آخر في هذا الموضوع، فيُذكَر أنّه يتعيّن على الجامعة أن تكون منفتحة على « المدينة، والمنطقة، والعالم»، وأنّ عليها أيضاً الالتزام بـ «الخدمات المقدّمة إلى المجتمع، وبنشاطات التعاضد، وبالتعاون الدوليّ»، وأنّ عليها أخيراً أن تكون «محرّكاً للإنماء الاقتصاديّ». وتتّفق هذه التوجّهات مع ما تنصّ عليه في الواقع شرعة جامعتنا التي تشدّد على «رسالة الجامعة الثقافيّة... في خدمة الترقّي الإنسانيّ» (المادّة الثانية). وتتّفق هذه التوجّهات أيضاً مع الهاجس الذي كان طاغياً على الجامعيّ الذي قام البابا بنديكتوس السادس عشر مؤخّراً بتطويبه في انكلترا، ولم يكن بمقدوره أن يتصوّر جامعته بمعزلٍ عن المجتمع. فلقد كتب نيومن (Newman) ما يأتي : «إنّ التنشئة الجامعيّة هي الوسيلة الكبرى المعهودة لبلوغ الغايات الكبرى العاديّة كلّها. فهي تسعى إلى رفع مستوى المجتمع الفكريّ، وإلى تربية الرأي العامّ، وإلى تطهير الحسّ الوطنيّ، وإلى طرح مواضيع حقيقيّة تستثير الحماس الشعبيّ، ومثالٍ موثوق لتطلّعات الجماهير...»[1]. لم يقل نيومن إنّ على الجامعة أن تساعد في جني الأموال، ولم يقل إنّ على الجامعة أن تكون صدىً فحسب للخصومات الاجتماعيّة والسياسيّة في كلّ أمّة... بل قال إنّ المهمّة الأولى التي تقع على عاتق الجامعة هي تغيير العالَم. وهذا يقتضي بالتأكيد القيام بالأبحاث

1 John Henry Newman. *L'idée d'université*. Septentrion, 1997, pp. 177-8.

العلميّة، ولكنّه يقتضي أيضاً التزامات شخصيّة لا غنىً عنها، ونوعاً من الالتزام المجّانيّ.

* * *

لم تعد الجامعةُ إذاً ما كانت عليه سابقاً، ولا الطالب أيضاً، وقد صار المطلوب منه ألاّ يكون تلميذاً أو متدرّباً فحسب، بل أن يكون أيضاً باحثاً ومواطناً، وعاملاً اجتماعيّاً، ومنشئ مجتمع مختلف، وباختصار، خميرةً في العجين، وذلك فقط بفضل المزايا التي اكتسبها في الجامعة. ولكن إذا كان الأمر قد غدا على هذه الحال، فليس مردّ ذلك إلى ما شهدَته الجامعة من نموٍّ محتّم فحسب، بل أيضاً إلى أنّ العالَم الذي نعيش فيه لم يعد تماماً كما كان، لأنّنا قد دخلنا في زمن العولمة.

وممّا لا شكّ فيه، على ما يؤكّده لنا الخبراء، أنّ العولمة ليست بنت اليوم. ولكنّها تتّخذ الآن أشكالاً غير معهودة، وهي بالتالي تستثيرنا بطريقة مميّزة لأنّها، وإن كانت تفتح آفاقاً وتنشئ علاقات جديدة، وإن كانت تعبّر عن الحِراك والمشاركة، وإن كانت تساعد في كسر الحدود، فهي تُدخلنا في الواقع إلى عالم لا يسعنا أن نجهل معالمه الجديدة. ولقد أسهب الرئيس العامّ للرهبانيّة اليسوعيّة، الأب أدولفو نيكولا (Adolfo Nicolas)، في الكلمة التي ألقاها أمام اليسوعيّين الذين يتولّون مسؤوليّات في التعليم العالي، في عرض هذا المنظور الجديد. فاسمحوا لي أن أقتبس منه ما يأتي :

«عندما يُتاح لنا الوصول إلى هذا المقدار الكبير من المعلومات بأسرع السُبل وأسهلها، وعندما يُتاح لنا أن نعبّر عن رأينا ونعلن إلى العالم، من خلال المدوّنات الإلكترونيّة أو الميكرو مدوّنات ردود فعلنا الشخصيّة بسرعةٍ قصوى ومن دون أن نفكّر، وعندما يُمكن نشرُ المقال الافتتاحيّ الأخير الصادر في صحيفة النيويورك تايمس (*NewYork Times*) أو أل

بابيس (*El Pais*)، أو بثُّ أحدث فيلم فيديو، بسرعةٍ قصوى، على امتداد نصف الكرة الأرضيّة، بغية تشكيل الأحاسيس والمشاعر، فإنّه غالباً ما يتمّ، في مثل هذه الأحوال، تعطيل المهمّة الشاقّة التي تقوم على ممارسة التفكير النقديّ والمعمّق.

وعندما تُتاح لنا ممارسة عمليّة «القطع واللصق» من دون حاجةٍ إلى إعمال التفكير النقديّ أو إلى التأليف المُتقَن، أو حتّى إلى استخلاص نتائج شخصيّة تمّ التفكير فيها بتأنٍّ؛ وعندما تغزو شاشات الكومبيوتر الصُوَرُ الجميلة التي يروّجها تجّار الأحلام للمستهلكين، أو عندما يُمكنك تجنّب الأصوات المزعجة بمجرّد الاستماع إلى الجهاز الرقميّ الجوّال، فإنّ رؤيتنا الواقع أو إدراكنا له وحتّى رغباتنا تبقى على درجةٍ كبيرة من السطحيّة. وعندما يُتاح لنا أن نصبح بسرعةٍ قصوى ومن غير أن يقتضي ذلك منّا بذل أيّ جهد، «أصدقاء» مع أشخاصٍ لا تربطنا بهم إلاّ مجرّد معرفة فحسب، أو حتّى مع غرباء، وذلك من خلال شبكات التواصل الاجتماعيّة – وإن كنّا نستطيع أن «نُسقط من قائمة أصدقائنا» شخصاً ما من غير أن نتكبّد عناء لقائه أو، إذا اقتضى الأمر، من غير أن نتكبّد عناء مجابهةٍ تعقبها مصالحة –، فيمكن إذ ذاك أن تصبح العلاقات بدورها، هي أيضاً، سطحيّة.

وعندما ننوء تحت وطأة عددٍ مذهلٍ من الخيارات، والقِيَم، والمعتقدات، والنظرات إلى الحياة، نغدو معرّضين لأن ننزلق إلى سطحيّة النسبيّة الكسولة، أو إلى تقبّل الآخرين وتقبّل نظراتهم على سبيل التسامح ليس إلاّ، عوضاً من الانخراط في المهمّة الشاقّة التي تقوم على إنشاء مجموعاتٍ للحوار، تسعى إلى طلب الحقيقة والتفاهم. فإنّه لَمِن الأيسر بالتأكيد أنْ نقوم بما يُطلب منّا، مِن أن ندرس، ونصلّي، ونخاطر أو نتّخذ قرارات.

(...) إنّ تكنولوجيّاتنا الحديثة والقيَم التي تتأسس عليها، ومنها النسبيّةُ على صعيد الأخلاق، والنزعةُ الاستهلاكيّة، تعمل على تشكيل العوالم الداخليّة لدى عددٍ كبيرٍ من الأشخاص، ولا سيّما الشبّان الذين عُهِدَ بهم إلينا، ومن شأن ذلك أن يحدّ من نموّ الكائنات البشريّة نموّاً حقيقيّاً، وأن يحدّ أيضا من أجوبتها في عالَمٍ هو أحوج ما يكون إلى نقاهةٍ فكريّة، وأخلاقيّة، وروحيّة».

لا أظنّ أنّه من اليسير أن نكذّب هذه النظرة إلى الأمور. فقد يكون للعولمة جوانبها الإيجابيّة – أ وَلسنا مَدينين لها بأنّها شقّت الطريق أمام أنماط جديدة من التعاضد ؟ – ولكنّها غالباً ما تقودنا، باسم سهولةٍ في إقامة العلاقات لا تخفى على أحد، إلى رؤىً للعالم تطغى عليها الانطباعيّة بشكلٍ تامّ، فلا تقوم فيه قائمة لأيّ شيء. السطحيّة، والنسبيّة، والنزعةُ الاستهلاكيّة، هذه هي سِمات عالمٍ جديد سرعان ما تقوم في وجهه الأصوليّات والتطرّف بأشكاله وألوانه المختلفة ؛ وتشكّل كلّها تحدّياتٍ تُفرَض علينا ويتعيّن علينا أن نواجهها. ولقد ذكر الرئيس العامّ للآباء اليسوعيّين أيضاً أنّ الطابَع السطحيّ الذي تتّسم به العلاقات الناجمة عن العَولمة يواجهنا بتحدٍّ حقيقيّ، لأنّه ينطوي على مسارٍ كاملٍ لتعرية العلاقات من طابَعها الإنسانيّ. وتتّفق هذه الأفكار مع ما عبّر عنه مؤخّراً عالِم الاجتماع إدغار موران (Edgar Morin) : «عِوضاً من أن تعزّز العولمةُ الأنَسيّةَ الكونيّة، فإنّها بخلاف ذلك تشجّع المواطنيّة العالميّة المجرّدة القائمة على العلاقات التجاريّة، والعودة إلى النزعات الإقليميّة المنغلقة...». (**جريدة الموند، ٢٠١١/١/٩**). فعلينا أن نواجه هذا التحدّي فنكتشف، في التعليم الذي نؤمّنه، السبيل إلى التوفيق بين التفكير العميق والخيال المبدع. ويشير الأب نيكولا إلى أنّ هذا الأمر يعني أنّه يتعيّن علينا البلوغ بطلاّبنا،

في ما يتجاوز درجة الامتياز في كفاياتهم المِهْنيّة، إلى مرتبة هذا التعاضد الخلاّق الذي تحتاج إليه مجتمعاتنا أيّما حاجة.

* * *

إنّ الخواطر المعدودة التي أوحت إلينا بها تأمّلات الرئيس العامّ للآباء اليسوعيّين، هي أوّلاً وليدة معاينة الواقع. إنّ العولمة هي ما هي عليه، ولا جدوى من إنكارها، وإنّ لها نتائجها. فيتعيّن علينا أن لا ننظر إليها بوصفها عواقب محتومة، بل بوصفها تحدّيات علينا أن نواجهها، أو إنذارات من شأنها أن تحملنا على أن نعمل بطريقةٍ مختلفة، وعلى أن نحدّد بطريقة خاصّة ومميّزة موقعنا في غمار الفوضى العارمة التي تعصف بالعالَم اليوم، وعلى أن نكتشف كيف يتوجّب علينا أن ننشط في مجالات معيّنة حتّى نُخرّج في كليّاتنا ومعاهدنا رجالاً ونساءً مؤهّلين فعليّاً لمجابهة مشاكل عالمنا.

فلا بدّ إذاً من تحديد الأهداف التي لا يسعنا، في مثل هذا السياق، أن نتغاضى عنها، لأنّه يتعيّن على الرجال والنساء الذين نرغب في تنشئتهم أن يكونوا مؤهّلين للاضطلاع بها من دون تردّد. فيبدو لنا أنّه علينا، على هذا الصعيد، التركيز على ثلاثة محاور لعملنا، وهي : البيئة التي تسوء أحوالها، والفقر الذي يستفحل، والأزمات العلائقيّة والروحيّة التي تزداد مأساويّة.

فلنبدأ أوّلاً بالبيئة التي تسوء أحوالها... لا أرغب أن أسهب في الحديث عن هذا الموضوع الشديد السخونة. ولكن كيف يمكننا ألاّ نذكر هنا تلوّث المياه، وتلوّث الهواء، والاستغلال المفرط للموارد الطبيعيّة، وتدمير الموائل الطبيعيّة ؟ وكيف يمكننا ألاّ نذكر ما يترتّب على الممارسات البالغة الضرر من عواقب وخيمة، عنيت بها : الاحتباس الحراريّ، ونضوب طبقات المياه

الجوفيّة، وتدهور نوعيّة الحياة، والخسارة التي لا تعوَّض للتنوّع الحيويّ الذي كان بحقٍّ مدعاة فخرٍ للبنان ؟ إنّ هذه اللوحة تثير الخوف، وهي تتطلّب من جامعاتنا التزامات حاسمة على صعيد تنشئة طلاّبنا تنشئة تركّز على كلّ ما يتعلّق بمفهوم «التنمية المستدامة»، وعلى تزويدهم بالأدوات التي تمكّنهم من بناء عالمٍ قابلٍ للحياة، وصالحٍ للعيش، وتسوده العدالة، وهو باختصار، عالمٌ يجتمع فيه الحِرصُ على حماية البيئة، وعلى التنمية الاقتصاديّة، والحِرصُ على التنمية الاجتماعيّة والثقافيّة. لقد أوصى إعلان مدينة بون الخاصّ بالتربية على التنمية المستَدامَة في مؤسّسات التعليم (اليونسكو – ٢٠٠٩) بإدراج قضايا التنمية المستَدامَة في مستويات التعليم كلّها، وفي أشكاله كلّها، وذلك وفق مقاربةٍ منظوميّةٍ تكامليّة، وحثّ على إجراء أبحاث علميّة في مجالاتها كلّها. فعلينا إذاً أن نبادر إلى العمل وننخرط بدون تردّد في إعادة النظر في برامجنا التعليميّة في ضوء هذا التوجّه، كما في اعتماد برامج فعّالة لإدارة الموارد على صعيد مؤسّساتنا وأحرامنا الجامعيّة، من شأنها أن تجعل من مفاهيم الاقتصاد والتوفير، وإعادة التدوير، وإعادة استعمال كلّ ما هو قابل لذلك، العناوين الأساسيّة لنمط حياتنا. وليس المطلوب منّا أن نُعلن بقرارٍ تغييرَ أحوال جامعتنا على الصعيد البيئيّ، بل المطلوب هو أن نعمل في سبيل ذلك، وتقع هذه المهمّة على عاتق جميع الأطراف في أسرتنا الجامعيّة. ولا يمكننا أيضاً أن نتغنّى بمفاهيم كالتنمية المُستَدامَة، من دون أن نفكّر في الاستثمارات التي نوظّفها في هذه الميادين. لقد طوَّرت جامعتنا الأبحاث العلميّة في مجال الصحّة، فعليها الآن أنْ تحقّق إنجازاتٍ مماثلة في ما يتعلّق بالطاقات الجديدة والتكنولوجيّات الجديدة. وغنيٌّ عن البيان أنّ التطوير المطلوب لا بدّ أن يتمّ إنجازه، على غرار التطوير المُنجَز، من أجل لبنان والمنطقة بأسرها.

إنّ تنظيم حياتنا وفق إيقاع التطويرات التي أتينا على ذكرها ، يقتضي منّا بالتأكيد أن ننظّمها وفق إيقاع ما يجري في بلدنا وفي المنطقة. وإنّ جامعتنا مدعوّةٌ اليوم، كما لم تُدع ربّما إلى ذلك قطّ في السابق، إلى أن تكون معنيّةً إلى أبعد الحدود بما تعيش فيه المجتمعات التي تقوم بين ظهرانيها. فيجب أن تكون العافيةُ الاقتصاديّة للبنان والمنطقة همّنا الأساسيّ. ولهذا السبب أشرنا منذ قليل إلى أنّ محور العمل الثاني الذي ينبغي أن تركّز عليه جامعتنا هو «الفقر الذي يستفحل»...

قد يكون من المشروع بالتأكيد أن نُتَّهم بأنّنا نُصدر هنا حُكماً لا يخلو من التسرّع. أ وَلم يُقَل مراراً وتكراراً إنّ لبنان نجح في الإفلات من الأزمة الاقتصاديّة الكبيرة في العام ٢٠٠٨ ؟ أ وَليس من البيّن أنّ ورش البناء قد تضاعفت على مدى العامَين ٢٠٠٩–٢٠١٠، ولو سجّل هذا القطاع، على ما يبدو، في نهاية العام الماضي، تراجعاً ملحوظاً ؟ غير أنّه من الخفّة بمكان الاكتفاء بهذه الأحكام التقريبيّة. ممّا لا شكّ فيه أنّ الأزمة التي ضربت الغرب لم تُطِح بلبنان، ولكن علينا أن نعترف بأنّه لم يشهد حركة التطوّر التي تشهدها الشعوب الآسيويّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ في لبنان مَن يستطيعون شراء شققٍ باهظة الثمن، ولكنّ فيه أيضاً عدداً كبيراً ممّن يضطرّون إلى تقليص مصاريفهم. وممّا لا شكّ فيه، استناداً إلى تقارير خبراء برنامج الأمم المتّحدة الإنمائيّ، أنّ معدَّلَي «الفقر المدقع» و «الفقر الشديد» قد انخفضا (الأوّل بنسبة ٨٪، والثاني بنسبة ٢٨٪)، ولكنّ هذه النزعة قد انعكست منذ العام ٢٠٠٤ : فارتفعت الأسعار من دون أن تطرأ زياداتٌ على الأجور، وبرزت تفاوتاتٌ هائلة عمّقت الهوّة بين سكّان المحافظات المختلفة، وبين تلامذة هذه المدرسة أو تلك، كما بين الرجال والنساء. ولا تستطيع الأسرة الجامعيّة أن تتجاهل نتائج هذه التباينات، وعلينا بالتالي على هذا الصعيد أيضاً، أن نتحرّك، سواء على مستوى برامجنا التعليميّة، أم على مستوى إثارة وعي طلّابنا وتعبئتهم بطريقةٍ عقلانيّة، لأنّ في قبولنا بهذه

التفاوتات إساءةً إلى مفهوم المواطنيّة نفسه، الذي يشمل، على ما يذكّرنا به بحقّ تقرير برنامج الأمم المتّحدة الإنمائيّ المشار إليه أعلاه، حقوق الأفراد السياسيّة والمدنيّة، وحقوقهم الاجتماعيّة أيضاً. فتقع على عاتقنا مهمّة ابتكار برامج جديدة للتنشئة من شأنها أن تتولّى توعية مَن يتابعها على أبعاد جديدة لِمواطنيّتهم ؛ وتقع على عاتقنا مهمّة مضاعفة مجالات الانخراط التطوّعيّ على الأرض، على غرار ما يجري منذ العام ٢٠٠٦ في نطاق عمليّة اليوم السابع، وفي نطاق كلّ ما نسمّيه اليوم «النشاطات في خدمة الجماعة». فها نحن نلتقي هنا من جديد بالمهمّة الثالثة الشهيرة التي تضطلع بها الجامعة. فإنّه لا يسعنا التفلّت منها.

غير أنّه من البداهة التأكيد، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل، أنّ التزام الجامعة الاجتماعيّ لا يمكن أن يقتصر في نظرنا على انخراطها في التنمية المستدامة أو في محاربة الفقر، مهما كان انخراطها فيهما عميقاً. فلا يسعنا في الواقع أن نُهمل القضيّة التي أثرناها مع الرئيس العامّ للآباء اليسوعيّين، التي تُبرز ثمار العَولمة الخبيثة. فإنّ أُولى عواقبها تتّصل بالأزمة العميقة للثقافة، وبالابتعاد عن كلّ روحانيّة. وغنيٌّ عن البيان أنّ انهيار القِيَم الأساسيّة التي تمدّنا بأسباب الحياة، بهذا الشكل، لا يمكن إلاّ أن تترتّب عليه نتائج كارثيّة. وهو يتجسّد من جهةٍ في العجز عن التواصل مع الآخر بصورةٍ عميقة، وفي العجز أيضاً عن صياغة فكرةٍ لا تُختَزَل بعددٍ محدود من الشعارات التي تفتقر إلى الروح. ويتجسّد هذا الانهيار، في الجهة المقابلة، في حَمل البعض على مواقف وتصرّفات وآراء متعصّبة وقصيرة النظر. وعلى كلّ حال ما عاد أحدٌ يتواصل مع أحد لأنّه، باستثناء بعض الكليشيهات المعلّبة والمبهمة، أو بعض العبارات المنمَّطة التي ورثناها عن كتب عقائديّة ترقى إلى عهودٍ سالفة، لم يعد لدى الناس ما يتواصلون في شأنه.

فيتعيّن علينا، نحن الجامعيّين، في مواجهة مثل هذه الأوضاع، أن نُعيد إلى الكلمات معانيها، وأن نفعّل من جديد ذكاءنا، وأن نساعد جميع مَن يحوطوننا على إعادة اكتشاف أهميّة الأشياء الحقيقيّة والحيّة. وليس المطلوب منّا اختراع مقرّرات دراسيّة جديدة لذلك كلّه. حسبُنا أن نعيش مع جميع مَن هم قربنا، وأن نحترمهم، وأن نبيّن لهم أنّ في الحياة سُبلاً تقود إلى الحقيقة، ولقاءاتٍ قيّمة هي أفضل ألف مرّة من الطرق المختَصَرَة التي يُمكنهم أن يكتشفوها على الانترنت. وحسبُنا أن نبذل كلّ ما في وسعنا حتّى نوَفّق في إفهام الجميع، أنّه فضلاً عن آلاف الاكتشافات التي توفّرها التكنولوجيّات الحديثة، ثمّة ابتكارات يمكنها أن تنبع من الصمت، ومن التأمّل، أو من تبادل أفكارٍ معمَّق بين باحثين. إنّ العولمة، كما هي اليوم، تستطيع تدمير الإنسان، وتفكيكه ؛ وهي تستطيع أيضاً أن تشكّل نقطة انطلاق لاستعادة إنسانيّة الإنسان، ولانفتاحه على الله، والمطلق، والآخر، والآخر المختلف كليّاً. وإنّ بإمكان الجامعيّين الغرق في عالَم المعرفة كما هو في وضعه الراهن، والإصابة بعدوى تفاهاته، وبإمكانهم أيضاً أن يتحوّلوا إلى الكائنات المسطّحة هذه التي تعيش ضمن قطعان تحت أضواء الكاميرات. ولكن بإمكانهم، بل عليهم بالأحرى أن يستعيدوا دورهم كمبدعين. فيجب أن تتحوّل التربية اليوم بكاملها إلى تربيةٍ على الابتكار والإبداع وفق قِيَمٍ تبقى في نظرنا ثابتةً راسخة.

* * *

لقد ذَكَرْنا المهمّات الإلزاميّة التي يبدو لنا أنّه يتعيّن علينا أن نضطلع بها، في مواجهة عولمةٍ هي ما هي عليه، ألا وهي : أن نسعى إلى التنمية المستدامَة في هذا العالم، وأن ننذر نفوسنا دوماً لمساعدة مَن هم الأشدّ فقراً، وأن نبعث في داخلنا القِيَم الحيّة التي من شأنها أن تساعدنا لكي

نتنفّس ونبتكر. وإنّها لَمهمّاتٌ ملزمة جوهريّة، تمثّل في الواقع ما سيخوّلنا حقّاً أن نعيش مع بعضنا. وهي تمثّل فعلاً القاعدة الأساسيّة التي يقوم عليها كلّ التزام في خدمة مجتمع هو باستمرار قيد البناء. وإنّ ما أتينا الآن على ذكره يُفضي إلى الحديث، في ختام هذه الكلمة، عن الهدف الذي ينبغي أن تصبّ جميع مساعينا في اتّجاهه، عنيتُ به : الحياة في المجتمع. ففي هذه الأيّام التي تهيمن فيها العولمة، تقع على عاتقكم مهمّة بناء العائلات التي هي في عهدتكم، ومهمّة تنظيم الأسرة الجامعيّة والهيئات المِهْنيّة التي تنتسبون إليها، ومهمّة وضع حدٍّ للانقسامات التي تمزّق بلدكم. ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟

لقد ذكَرْنا ما يمكنه أن يشكّل «القاعدة»، أي ما يمكننا أن نستعمله كأداة، فلا بدّ لنا أن نذكر أخيراً ما ينبغي أن يرافقنا بصورةٍ دائمة، أي المتطلّبات الشخصيّة التي نلتزم بها، أو التي يتعيّن علينا أن نلتزم بها، حتّى يغدو العالَم صالحاً للعيش. فثمّة، على هذا الصعيد، قِيَمٌ، وأنماط سلوك، وخيارات انخراط، هي جوهريّة، ولا يسعنا أن نتجاهلها.

قِيَمٌ ؟ ما الداعي إلى إثارة هذا الموضوع مجدّداً باستمرار ؟ لأنّه في الواقع بعدٌ أساسيّ في كلّ ما يمكن للفريق الاجتماعيّ الذي ننتمي إليه أن يقوله، أو يفعله، أو يعيش فيه. فإنّه فضلاً عن الأفراد الذين يؤلّفون أسرتنا الجامعيّة، لا تستمدّ أسرتنا الجامعيّة هذه وجودَها إلاّ بهذه المفاهيم التي ينبغي لها أن تبني شخصيّة أبنائها المركّبة : الحِرصُ الدائم على الحقيقة والعدالة، والتصميمُ على الالتزام بخدمة الجميع، والاعترافُ بالبُعد الروحيّ الذي يجب أن يسكن قلب كلّ واحد منّا، واحترامُ الآخرين كافّة، والتوقُ إلى الطيبة الذي يمكن أن يسكن فينا ...

وفي صميم هذا البناء يكمن بالتأكيد ما يشكّل سِمة جامعتنا المميِّزة، فهي جامعةٌ كاثوليكيّة غير أنّها منفتحة انفتاحاً كليّاً على جميع مَن يمارسون تقاليد دينيّة أخرى، وعلى جميع مَن يتبنّون سُبُلاً أخرى، أقرب

إلى العلمانيّة، لمقاربة التزامهم المدنيّ. وباختصار، يجب أن يتركّز اهتمامنا الأوّل على هذا الصعيد، على تأكيدنا الدائم لضرورة التعايش بين أشخاصٍ مختلفين جميعاً، وموسومين جميعاً على الصعيد الثقافيّ بسماتٍ مميّزة. فهكذا بُنيَ لبنان، وهكذا يعود إلينا اليوم أن نتابع عمليّة البناء هذه، سواء على صعيدنا الجامعيّ، أم على صعدٍ أخرى كثيرة.

بقي أمامنا أن نتناول الجانب الثالث والأخير في بحثنا. فينبغي لنا أن نعيش هذه المبادئ الجميلة التي عدّدناها، وأن نعيشها مع بعضنا. ففي نطاق العائلة، نحن نعرف بصورةٍ عامّة كيف نُحسن التصرّف، وإن لم تكن العلاقات بين الأهل وأبنائهم مثاليّة دائماً. أمّا في الطرف المقابل من المنظومة المجتمعيّة، على صعيد المجموعات الكبيرة، فكما سبق لنا أن قلنا في معرض حديثنا عن العولمة، إنّ الأمور ليست على ما يُرام. فنرى أنّ تيّارات متعدّدة تختطف المواطنين، وتقودهم إلى النسبيّة والتشتّت بمقدار ما تقودهم إلى الانغلاق والتصلّب الفئويّ. فعلينا أن نستنبط، في البنى الوسيطة، أساليب خاصّة للعيش المشترَك، وليس ذلك بالأمر اليسير. يمكننا أن نقول إنّ النظام القائم على التوجيه الصارم ليس بالحلّ المناسب؛ ويمكننا من جهة ثانية أن نعتبر أنّ الديموقراطيّة التمثيليّة ليست بالحلّ الأنجع؛ ويمكننا أن نحلم بديموقراطيّة تشاركيّة من شأنها أن تتيح انخراط أعدادٍ لا تنفكّ تتزايد من المواطنين في صياغة أنماطٍ للعيش. فعلينا أن نُحسن المواءمة بين هذه البنى الثلاث، آملين أن تتيح معايشة الناس بعضهم بعضاً الاهتداء إلى الحلّ المناسب في أحد الأيّام. أمّا الثابت والأكيد، فهو أنّه من شأن انفتاح الجميع على الجميع، الذي هو الرمز المعبّر عن النظام الجديد المعَولَم، أن يحفّزنا على أن ننفتح باستمرار على الآخر وعلى الآخرين، وأن ننتظم معهم في شبكات تواصل، وباختصار أن نعي أن المهمّ اليوم هو أن نبقى دوماً على اتّصال بمتّخذي القرارات وبالمقدار نفسه مع معدّي هذه القرارات.

سيّداتي، سادتي،

إنّ جامعتنا، شأنها في ذلك شأن عددٍ كبيرٍ من الجامعات الأخرى، تعيش على وقع ما يشهده عالمنا من تغيّرات. و ليست هذه التغيّرات دائماً بالسارّة. فلنستمع مجدّداً إلى إدغار موران الذي استشهدتُ به منذ قليل : «ستزداد سرعة الخطو نحو الكوارث في العقد الآتي. فسيُضاف إلى عمى بصيرة «الإنسان العاقل» (*homo sapiens*) الذي تفتقر عقلانيّته إلى التعقيد، عمى بصيرة «الإنسان العمِه» (*homo demens*) الذي تتحكّم فيه جموحاته وأحقاده. وقد أعقب موتَ الأخطبوط الشموليّ الهيجانُ الشرس لأخطبوط التعصّب الدينيّ ولأخطبوط الرأسماليّة الماليّة. إنّ قوى التفكّك والتشرذم تُحرز تقدّماً في كلّ مكان». ومن الواضح أن التوتّرات هي أيضاً شديدة الاحتدام في قلب شرقنا الأدنى الذي يعيث فيه عددٌ كبير من مسبّبي الويلات فساداً. فعلينا أن نُحسن مواجهة هذه التحوّلات كلّها، بانفتاحنا على الآخرين من غير تردّد، وبابتكارنا التزامات جديدة، وبالمثابرة على وفائنا لتقاليد عريقة كانت مصدر سعادة أجيالٍ وأجيال من قدامى خرّيجينا، وكانت تقوم منذ ذلك العهد على مراعاتها الحقوق المكرَّسة عالميّاً، وهي : الحقّ في المعرفة، والحقّ في الاحترام، والحقّ في الطاقة الخلاّقة. فليس المطلوب منّا المفاضلة بين هذا الخيار أو ذاك، بل علينا أن نعيش في وسط ذلك كلّه. فعلى هذا النحو يمكن أسرتنا الجامعيّة أن تضطلع برسالتها.

نَقَل النَصّ إلى العرَبيّة الدكتور هنري العَويط